

28-06-1998

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة الكرام، في سورة الشمس التي مطلعها قوله تعالى:

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ
وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) ﴾

[سورة الشمس]

كيف أن هذه الشمس عظيمة، وهذا النهار وهذا الليل، وهذا القمر ؛ نفسك التي بين جنبتك لها جيلة عظيمة، ولها خصائص، فكما أن لهذا الجسم خصائص فلهذه النفس خصائص، والإنسان حينما يكشف خصائص نفسه يسعد مع ربه وأحد أكبر هذه الخصائص ؛ ألهمها فجورها وتقواها، وأحد أكبر هذه الخصائص ؛ ونفس وما سواها فكيف سواها ؟ الإنسان مبدئياً لو لم يصله الشرع ولم يتلق العلم، ولم يجلس مجلس علم، ولم لم يقرأ كتاب، ولو لم يستمع إلى خطاب، لو أصغى إلى فطرته لعرف أنه إن كان على صواب أو خطأ ! لأن هذه النفس من خصائصها أنك إذا انحرفت عن المبادئ التي جُبلت عليها تشعُر بضيق ! فالإنسان المؤمن إذا ارتقت نفسه، وأصبح على حساسية موهبة بحيث لو أخطأ لشعر أنه أخطأ، فكيف أن الإنسان إذا جاع يشعر أنه قد جاع، فلا حاجة لأحد أن يعلمه، أما الوقود إذا انتهى فهناك مؤشر، لو لم ينتبه إلى المؤر تقطعه، وكذا للحرارة مؤشر، فلو كان مع حديث شيق وارتفعت حرارة المحرك ولم ينتبه له يخرق المحرك ! فالأجهزة المعلمة بعضها صوتي، والآخر صوتي، أم الإحساس بالجوع؛ ما نوحه؟! لا يوجد عندك لا ضوء ولا صوت، لكن لما تجوع تشعر به، فهذا إحساس مرگب بطبيعة الجسم، ولولا هذا الإحساس ل مات جميع الناس وهم لا يشعرون ! تنقص الكميات ولا يشعر بها ولا يلتي حاجيات الجسم قيموت، أما ربنا عز وجل خص الإنسان، وصمم هذا الجسد بحيث كمية الغذاء في مستودعات الكبد إذا قلت عن حدّها الأدنى يشعر بالجوع، والإنسان يأكل أحياناً خبزاً يابساً من شدة الجوع، ويأكل أحسن الطعام، ويراه أطيب الطعام من شدة الجوع، وقد ورد في بعض الآثار عن رسول

الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: نعم الإدام الخل " يعني أطيب طعام على الإطلاق أن يكون الأكل جائعاً ! فإذا كان جائعاً تدوّق للطعام طعمًا لا مثيل له، وأكثر الناس يقولون لك: أكلنا أكلة لا أنساها إلى الموت، وقد تجدها عادية إلا أنه كان جوعاًنا ! فالجوع الشديد جعله يتدوّق هذا الطعام، وحينما يشبع الإنسان لو وضعت أمامه أطيب الطعام تعاف نفسه الطعام، أحياناً الإنسان من شدة التُّخمة والخلط بالطعام يحدث معه إقياء، لو ذكرت له أشهى الطعام لرأيتُهُ يحب أن يتقيأ، ويكاد يخرج من جلده تقرُّراً منه، فهذه من خصائص الجسم ؛ الجوع والشبع وكذا العطش !

لا شيء يغدُل كأس الماء، لو جئت له بأطيب المشروبات لا يرتوي إلا بالماء.

فَنَفْسُكَ التي بين جَنبَيْكَ، والتي هي أمانة في عُنُقِكَ لها خصائص، وأحد أكبر خصائصها أنك إن انخرقت عن منهج الله عاقبتك نفسك بالضيق قبل غيرك ! أنت تُسمي هذه كآبة، وشعور بالكرهية، وضيق سميتها ما شئت، المهمة هذا عقوبة النفس لصاحبها جرأ خروجه عن منهج الله، فهي أول من تُعاقبك، وفي أحد الفنادق الفخمة بألمانيا مكتوب على الفرش أنه إذا أصابك الأرق فالعلة ليست في فروشنا ولكن في دُنوبك!

والإنسان حكيم نفسه، هناك شخص عنده عناية بالغة بجسمه، لا يتقل بالأكل، ولا يأكل الحلويات، وهذه لا يأكلها، يأكل أكلة واحدة ويقول لك: الإنسان حكيم نفسه، وإذا لم أكن حكيم نفسي أدفع الثمن باهظ فهذا في الجسم، الآن تعال إلى نفسه، إذا الإنسان بلغ من الوعي الروحي والوعي الديني، أنه إذا غلط شعر بحجاب مع الله عز وجل فحاسب نفسه حساب عسير، فأكثر مقياس دقيق دقيق بصواب عملك أن تستطيع أن تتصل بالله عقب هذا العمل، فأنت إذا عملت عملاً وانثقت، وأنت إذا استطعت ان تُصلي صلاةً صحيحة بعد هذا العمل فأنت على حق، لكن هذا ليس مقياساً لكل الناس وإنما لمن صفت نفسه ولمن كانت فطرته سليمة، فالإنسان عليه أن يحاسب نفسه حساباً عسيراً، لذلك الله عز وجل قال:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) ﴾

(سورة الشمس)

الشیطان أحياناً یُلقي في روعك معنى في تفسير هذه الآية ما أراده الله تعالى أبداً، ولو أمنت به لخرجت عن دائرة صواب العقيدة، وهو أن الله تعالى ألهم هذه النفس بمعنى خلق فيها الفُجور، وخلق فيها التَّقوى! فإذا كان الله تعالى خلق في هذه النفس الفُجور فكيف يحاسبها؟! وإذا خلق فيها التَّقوى فكيف يجازيها بالجنة؟! فهي لا تقواها منها، ولا فُجورها منها!! إنما هو من خلق الله فيها، وهذا المعنى جبري فاسد، ومعنى غير مقبول إطلاقاً، أما ألهمها فُجورها وتقواها أي أعلمها ذاتياً فكيف أنك إن جعلت تعرف ذاتياً أنك جائع، وهل يستطيع أحد أن يدخل إلى إحساسك العضلي، وهذا شعور فطري ثابت مع كل إنسان،

وكذا إن ارتقت نفسك إلى مستوى الحساسة النفسية بحيث أنك إذا تكلمت كلمة غير صحيحة وشعرت بالسقوط الداخلي، وبالحجاب الخارجي فهذه علامة طيبة جداً على أنك حي، لأن الله عز وجل قال:

﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) ﴾

[سورة النحل]

أحدهم شرب الخمر إلى أن تمايل، فدخل بيته فذبح زوجته وخمسة أولاد ! سكران، ولما صحى من سكره قتل نفسه !! ما الذي عدبته؟ الفطرة، وهناك رجل ببعض المدن كان يمشي بسيارته على الساعة الثانية ليلاً، وأبٌ مدجن بعث ابنه على البقالة، فهذا الرجل دحس هذا الطفل ومات الطفل الساعة ليلاً، ولا شرطي ولا أي شيء؛ القضية كُتبت ضد مجهول! هذا الذي دحس هذا الطفل بقي عشرين يوماً ما ذاق طعم النوم، مع أن لا أحد يلاحظه من الشرطة، فذهب إلى طبيب نفسي وقال له الطبيب: لا حل لك إلا أن تدفع دية هذا الطفل كي تستطيع أن تنام!

رجل سألني من هذا المسجد وقال: كنت راجعاً من حلب، وحدثت معي خطأ فدحست إنسان كبير بالسن، وتابعت السير ولا أحد لاحقني، والقصة لها أربعة سنوات، قال لي: لا أستطيع أن أرتاح ولا أن أنام منذ ذلك الحين!! فقلت له: إرجع إلى تلك المنطقة وسأل عن الشيخ الذي مات؛ من هم أهله؟! كي ترتاح، هذه أمثلة صارخة، وهذه هي الفطرة، أما الذي ليس فيه هذه الفطرة، فهو ينطبق عليه قوله تعالى:

﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) ﴾

[سورة النحل]

وقوله تعالى:

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾

[سورة فاطر]

ذكر لي أحدهم فقال: أنا جاهل، وأبي من أحد كبار المواشي والصوف، فكبر بالسن، فجعلني محله، ولم يعلمني أحد إنما قالوا لي: هؤلاء البدو إذبحهم!! أي تضاحك عليهم، فبعث أحدهم صوقاً وتضاحكت عليه بالوزن، فعوض أن يدفع اثني عشرة ألفاً دفع عشرين!! ولكن قال لي هذا البدوي: إن شاء الله، إن لعبت بي تجدها بصحتك! فقال لي: وأنا بالطريق ونفسي تُراودني؛ هل أرجع له ما أخذته منه؟ وبقيت على تلك الحال وأنا أمشي بالسيارة، ونفسي بين مدّ وجزر إلى أن اتخذت قراراً قانلاً: وماذا يحدث إن أخذت له. ولم أكمل الكلام حتى وجد نفسي في شلال من الدماء! انقلبت بي السيارة، فهو لما بصراع أعطاه الله مهلة، أما لما اتخذ قراراً عاقبه الله، لأن الله عز وجل قال:

﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) ﴾

[سورة الزخرف]

هكذا أردت، إذا سترى ! فدخّل المشفى، ولما خرج، ذهب للبدوي وقال له: قد سرقتك في الصوف ! فخذُ ثمنك، قال له البدوي: لا هذه هديّة مِنِّي، وأعطاه سمنًا !!!

كُنْتُ بِالْعُمْرَةِ، فَذَكَرَ لِي صَدِيقٌ قِصَّةً دَقِيقَةً جَدًّا، بَدَوِيًّا سَاكِنًا بِشَمَالِ جَدَّةَ، فَلَمَّا تَوَسَّعَتْ جَدَّةُ أَرْبَعِينَ كِيلُومِترًا نَحْوَ الشَّمَالِ، أَصْبَحَتْ أَرْضُهُ فَرِيبَةً مِنَ الْمَدِينَةِ، إِشْتَرَوْهَا مِنْهُ ثَلَاثَةُ مُجْرِمِينَ، وَضَحِكُوا عَلَيْهِ بِالنَّمْنِ وَعَمَّرُوهَا بِاتْنِي عَشْرَةَ طَابِقًا، فَأَوَّلُ شَرِيكَ وَقَعَ مِنْ فَوْقَ إِلَى تَحْتِ وَنَزَلَ مَيِّتًا، وَثَانِي شَرِيكَ مَاتَ بِحَادِثٍ، فَانْتَبَهَ الثَّلَاثُ، وَشَعَرَ أَنَّ أَمَامَهُ خَطَرَ كَبِيرًا، فَبَحَثَ عَنْ هَذَا الْبَدَوِيِّ حَتَّى وَجَدَهُ، فَقَالَ لَهُ: كُنْتُ غَالِطًا وَأَعْطَاهُ ثَلَاثَةَ أَمْثَالِ حِصَّتِهِ، فَقَالَ لَهُ الْبَدَوِيُّ: تَرَى تَرَى أَنْتَ لِحَقَّتْ حَالُكَ !! فَذَرَسْنَا الْيَوْمَ عَنِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، وَالِي يُرَاجِعُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَلْطِ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ:

﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2) ﴾

[سورة القيامة]

فالذي فطرته سليمة عليه أن يشكر الله عز وجل، والذي فطرته مطموسة عليه يطلب العلم حتى ترجع الفطرة سليمة لأنها المقياس الدقيق والله تعالى قال:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) ﴾

(سورة الشمس)

والدنيا كلّ شيء مخلول فيها، وفيها المسامحة والاعتذار، وطلب عفو أما في الآخرة فلا شيء من هذا.